# المروءة البكرية

من التوفيق العظيم لطالب العالم أن يكون مع علمه صاحب مروءات؛ يسدي المعروف، ويواسي المحتاج، ويكسب المعدوم، ويعين على نوائب الحق.

وهذا المرتقى ليس كل من طلبه ناله، وليس كل من تمناه أتاه؛ إذ المروءات قليلة الأولاد؛ فهي شديدة المطلب، منيعة الجانب؛ وقد وصفها أبو الطيب بأنها تؤذي؛ وذلك حين قال:

تَلَذُّ له المروءةُ وهي تُؤذي ومن يَغرم يَلذُّ له الغَرامُ[(١)]

وإذا تأملت سِيَرَ سادات أهل العلم فإنك تجد المروءات وصنائع المعروف مقرونة بسِيرهم؛ وممن اشتهر بذلك الإمام أبو حنيفة، فقد كان بذولاً معطاء فياضاً، ومن عجيب ما يذكر عنه أنه كان يبعث بالبضائع إلى بغداد، فيشتري بها الأمتعة ويحملها إلى الكوفة، ويجمع الأرباح عنده من سنة إلى سنة، فيشتري بها حوائج الأشياخ المحدثين، وأقواتهم وكسوتهم وجميع حوائجهم، ثم يدفع باقي الدنانير من الأرباح إليهم، فيقول: «أنفقوا في حوائجكم، ولا تحمدوا إلا الله، فإني ما

(١) ديوان المتنبي (٤/ ٧٥).

أعطيتكم من مالي شيئاً، ولكن من فضل الله علي فيكم، وهذه أرباح بضائعكم؛ فإنه هو والله مما يجريه الله لكم على يدي؛ فما في رزق الله حولٌ لغيره»[١].

وممن اشتهر بذلك ـ أيضاً ـ الإمامان عبد الله بن المبارك، والليث بن سعد، وقصصهم في كتب التراجم مشهورة.

وكان البخاري لا يفارقه كيسه، يأخذ صاحب الحاجة من أهل الحديث بيده، فيناوله البخاري ما بين العشرين إلى الثلاثين، وأقل وأكثر من غير أن يشعر بذلك أحد.

ومرة ناول رجلاً صرة فيها ثلاث مائة درهم، فأراد الرجل أن يدعو، فقال له البخاري: ارفق، واشتغل بحديث آخر؛ كيلا يعلم بذلك أحد[٢].

وقد كان الإمام مسلم يلقب بـ: «محسن نيسابور»[٣].

وقد أخذ شيخ الإسلام ابن تيمية من ذلك بحظ وافر؛ فقال عنه الذهبي: «وسائر العامة تحبه؛ لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً بلسانه، وقلمه»[٤].

---

(١) تاريخ بغداد (١٥/ ٤٨٧).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٥٠).
(٣) العبر، للذهبي (١/ ٣٧٥).
(٤) العقود الدرية، لابن عبد الهادي (ص١٣٤).

وسيرة الإمام ابن باز في بذل المعروف حافلة، فهو ابن بجدته، وطلاع أنجدته.

وما قصة اشتراء العلامة بكر أبو زيد رحمه الله بيتاً للعلامة عبد القادر الأرناؤوط رحمه الله إلا من هذا القبيل[١]، والقصة حقيقٌ أن يحتفى بها، فيوسع نشرها، ويذاع خبرها؛ فهي درس في المروءة يغني عن كثير من دروس التنظير.

وقد كنت مع بعض الأصحاب في زيارة لجمهورية كوسوفا، فالتقينا الشيخ عبد القادر بن محمود بن عبد القادر الأرناؤوط[٢]، فطلبت منه الحديث عن هذه الحادثة التي حصلت مع جده؛ إذ أهل البيت أدرى بما فيه، فتفضل الشيخ عبد القادر بسرد ذلك؛ فرأيت أن أكتب روايته؛ لما فيها من علو السند؛ والله المستعان.

ففي مطلع عام (١٤١٤هـ) زار الشيخ بكر أخاه الشيخ عبد القادر في سوريا، وكانت هذه هي الزيارة الأولى، فوافاه الشيخ بكر في شقته في منطقة يقال لها: أبو حبل، تقع في حي الميدان، وكانت الشقة تقع في ممر ضيق، لا تكاد تعبر معه السيارة، وكانت الشقة مكونة من ثلاث غرف، ودورة مياه، وصالة، وكانت عائلة الشيخ عبد القادر كبيرة، وقد اتخذ إحدى

(١) القصة مدونة على سبيل الاختصار في ملتقى أهل الحديث، وأثبتها الدكتور علي العمران في كتابه نثار السيرة (ص١١٩).
(٢) ثم أكد لي القصة الأستاذ محمد ابن الشيخ عبد القادر بعد ذلك.

هذه الغرف الثلاث مكتبة له، وكانت تحفل دوماً بطلاب العلم والمستفتين.

وفي ختام هذه الزيارة ذكر الشيخ بكر بأنه كثير الزيارة لسوريا، وأنه يريد أن يتخذ فيها سكناً يكون مقرّاً له، وطلب من الشيخ عبد القادر أن يُعْمل البحث عن أفضل سكن في أفضل حي؛ فرحب الشيخ عبد القادر بالفكرة، وطفق يبحث عن طلبه، فوقع على بيت ذي مواصفات عالية، يقع في كورنيش الميدان، أفضل مكان في الميدان، فأخبر الشيخ بكراً بذلك، ثم جاء الشيخ بكر، فذهب به الشيخ عبد القادر إلى البيت، فمشى الشيخ بكر فيه، فرآه وسُرَّ به، وفاجأ الشيخَ عبد القادر بقوله: هذا البيت هدية مني لكم يا شيخ عبد القادر؛ فإني لما زرتكم وجدت بيتكم يضيق بالطلاب والمستفتين، وأنتم مأوى للناس، فلعلكم أن تتوسعوا بهذا البيت، فكان شعور الشيخ عبد القادر بهذه الهدية العظيمة يقصر الوصف دونه، وتأمل حال الكريم إذا أكرمته كيف تكون.

وقد كان هذا البيت للشيخ عبد القادر بمثابة حبيب جاء على فاقة، وطلب الشيخ بكر من الشيخ عبد القادر كتمان الأمر، فلم يستطع الشيخ ذلك لعظم هذا المعروف، ورأى أن من الوفاء للشيخ بكر أن يذكر القصة حتى يدعو الناس له، ولم يزل الشيخ عبد القادر إلى أن توفي ممتناً للشيخ بكر، ذاكراً

نعمته هاته، موصياً أولاده دوماً بالدعاء له، وما أجمل المعروف حين يصيب أهله.

فأكرمْ بطالب علم تكون هذه المعاني حاضرة عنده؛ ولقد أوصى بها الشيخ بكر رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «حلية طالب العلم» بقوله: «تمتع بخصال الرجولة من الشجاعة، وشدة البأس، ومكارم الأخلاق، والبذل في سبيل المعروف، حتى تنقطع دونك آمال الرجال»(١).

وكما يتعلم طالب العلم مسائل العلم؛ فحقيقٌ به أن يتعلم أصول المروءة، وخصال الرجولة؛ فذلك من كمال العلم وتمامه؛ وما أجمل أن يكون في الدورات العلمية دروس وعناية بهذا الشأن، وكلٌّ ينفق من سعته، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها، وليسعد النطق إن لم تسعد الحال.

(١) حلية طالب العلم (ص١٤٩).